إضاءات نقدية (فصلية محكّمة)
السنة الثانية – العدد السابع – خريف ١٣٩١ش/ أيلول ٢٠١٢م

ظاهرة العيارة فى الأدب الفارسىّ والتقاؤها مع ظاهرة الصعلكة فى الأدب الجاهلىّ

فرهاد ديوسالار*
افسانه مرادى**

الملخص

ظهرت فى العصر الإسلامىّ الوسيط ظاهرةٌ سُمّيت بظاهرة العيارة أو الشطارة والتى تلتقى مع ظاهرة التصعلك والصعلكة الجاهليّة فى نزعتها الإنسانية؛ بحيث أعطى معظمُ الدارسين والباحثين تفسيرا إنسانيا لهاتين الظاهرتين من حيث الالتقاء والتداخل بينهما من جهة، والتواصل من جهة أخرى إذ إنّ هاتين الظاهرتين تحملانِ فى طيّاتهما فكرةً إنسانيةً رددتها العامة فى كلا العصرين الجاهلىّ والإسلامىّ الوسيط، فى الحكايات والقصص.

وجديرٌ بالإشارة أنَّ هاتين الظاهرتين التاريخيتين والشعبيتين تعكسان طموحا أو حلما جماعيا لتحقيق العدالة بصورتها الاجتماعية والسياسية معا فى المجتمع، تتلاشى معه تلك الهوةُ العظيمةُ التى تفصل بين أقليةٍ تملك معظمَ الثروة، وأغلبيةٍ ساحقةٍ تعيش على الفقر والحِرمان. وفى الحقيقة إنَّ المتأملَ فى أدب هؤلاء يرى أنهم كانوا فى ثورتهم وخروجهم وتمرّدهم، يهدفون إلى الإصلاح ويُنشِدون المساواةَ والعدالةَ الاجتماعيةَ.

الكلمات الدليلية: العيارة، الصعلكة، العدالة الاجتماعية، العصر الإسلامىّ الوسيط، التمرّد.

---

*. أستاذ مساعد بجامعة آزاد الإسلاميّة فى كرج، إيران. Divsalarf@yahoo.com
**. خريجة جامعة آزاد الإسلاميّة فى كرج، إيران.
التنقيح والمراجعة اللغوية: د. مهدى ناصرى
تاريخ الوصول: ١٣٩٠/١٠/١٠هـ. ش تاريخ القبول: ١٣٩١/٤/١٨هـ. ش

المقدمة

بـادئ ذى بدء وقبل أن نجيب عن بعض التسـاؤلات فى هذا المنطلق ومنها: من هم العيارون؟ وما هى صفاتُهم وأفعالهم؟ وهل كانوا مخطئين فى فعلتهم هذه؟ ولماذا اختاروا الشـطارةَ والعيارة حرفةً؟ وهل هى ذاتُ صلـةٍ مع الصعلكة؟ وأخيرا لماذا ظهرت هذه الظاهرةُ؟ علينا أن نشـير إشـارةً خاطفةً إلى أنّ ظاهرةَ الشـطارة والصعلكة التى تُنتِج الخروجَ والتمرد والعصيان، ظاهرةٌ عالميةٌ لها بصماتُها فى المجتمعات المختلفة الشـرقية والغربيـة، القديمة والحديثة. غـير أنها كانت تتفاوت بين مرحلـةٍ وأخرى، فحينا تحبط وتتلاشـى، وأحيانا تظهر وتشـتدّ. ولكنّها بصورة عامة يمكن القولُ إنها تقوى وتشـتدّ فى المجتمعـات التى تتعرض للفوضى والتجزئة من جرّاء ضعف السـلطةِ المركزية ومن كثرة الفتن، والاضطرابات، والمجاعات، والمشـاكل والهزّات المختلفة التى شـقيت بها، أو التفاوت الاجتماعى الطبقى المكشـوف الناجم عن بـروز ظاهرة التفاوت الطبقىّ- الاقتصادىّ، وما ولدته من ردود فعل من غلاء الحياة الذى كانت الحكومة مسـؤولةً له بسبب تغيرات شاملة فى شتى الميادين، الثقافية، والاجتماعية والاقتصادية و... إلخ.

ولكنها تظهر فى بعض المجتمعات كالمجتمع الجاهلىّ وليدة الصراع الداخلىّ، وبسبب الفقر والجوع وما نتج عنه من إرغام الطبقة الفقيرة التى لم تجد سِـوى الغزو والسـلب والتلصص وسيلةً لتنجو بنفسها من ذُلِّ الفاقة والحِرمان مما دفعها إلى التمرد.

والباعثُ الرئيسـىّ لإيجاد هؤلاء الخارجين علي القانون، هو أنّ كلَّ مجتمع يَضمّ فئةً قليلـة من الأسـياد الأثرياء والمترفين وفئةً كبيرة من الفقـراء. يقول جرجى زيدان إن الصعاليک والشطار لايرون فى السـرقة والنهب أىَّ ذنبٍ، فيستحلّونها ويحسبونها نوعا مـن الدهاء واللباقة؛ لأنّ التجارَ والأغنيـاءَ لايعطون زكاةَ أموالهم. (زيدان، ١٣٨٦ش: ٩١٠) وكلُّ فئـةٍ مـن هذه الفئات لها قيمٌ وعاداتٌ خاصةٌ بها، واشـتهرت بشـجاعتها وفروسيتها وبإسـراعها إلى مسـاعدة المحتاجين ومناصرة المظلومين عندما يكونون فى حال خصام مع الأسياد الذين يستخدمون السلطةَ بطريقة غير عادلة ولا شرعية. وهذا أمرٌ ينبع بنوع ما عن الفكر الاشـتراكىّ وعن ضرورة نشـوء الجماعات ولا الطبقات، والحصول على السعادة.

يعتقد أرسطو بنظريةٍ تؤكد على ضرورة نشوء الجماعات حيث يتكوّن الناسُ من ذكر وأنثى محتاجون إلى الاجتماع فهو يرى فى كتابه ''السياسة'' بأنّ الاجتماعَ أمرٌ طبيعىٌّ والإنسانُ كائنٌ اجتماعىٌّ أى أنَّ الناسَ من غير أية حاجةٍ إلى التعاون يرغبون رغبةً قوية فى عيشة الجماعة وهذا لايمنع أنَّ كلَّ واحد منهم مدفوعٌ بمصلحته الخاصة وبالرغبة فى تحصيل حظِّه الفردىّ من السعادة التى ينبغى أن يلقاها. (إحسان، ١٩٩٩م: ٦٧)

كما يرى أنّ الناسَ يجتمعون أيضاً على الأقل من أجل سعادة العيش وحدها وأنَّ حبَّ الحياة هو بلاشك أحدُ كمالاتِ الإنسانية؛ لذا فإنه يرى بأنّ المرءَ يرتبط بالمجتمع السياسىّ حتى عندما لايجد فيه شيئاً أكثر من المعيشة وذلک يؤكد الرؤيةَ السياسيةَ لأرسطو، التى محورُها الاجتماعُ الإنسانىُّ. (عبدالرحيم، ١٩٦٩م: ١٠٢)

وفى هذا القسم لابدّ من الإشارة إلى نظرية ابن خلدون حيث يرى أنَّ الاجتماعَ هو العمرانُ البشرىُّ الذى يحدث نتيجةً لاحتياج الناس بعضهم لبعض، وذلک لغرض إشباع حاجاتهم الأساسية، التى لايستطيع الإنسانُ بمفرده أن يقوم بها. (محمد الحسن، ١٩٩٩م: ١٤٨)

كما يعتقد ماركس أنَّ الصراعَ الطبقىَّ بين الطبقة الحاكمة والطبقة المحكومة هو أساسُ تغير المجتمع من مرحلة حضارية معيّنة إلى مرحلة أخرى كتغير المجتمع من نظام العبودية إلى نظام الإقطاع ثم منه إلى نظام الرأسمالية، كما درس ماركس الثورةَ الاجتماعيةَ وركّز على أسبابها ونتائجها ودورها فى تحرير الإنسان من الظلم والقيود الاجتماعية والحضارية. (محمد الحسن، ١٩٩٩م: ١٤٨)

أما اهتمامُ ماركس بالطبقة العاملة (البرولتاريا) فقد جعله يحدِّد الظروفَ التى تؤدِّى إلى قيام ثورة هذه الطبقة على النظام الرأسمالىّ والإطاحة به ويبرِّر ذلک بأنَّ الاستغلالَ والعبوديةَ والفقر وغيرها من الأمور التى تتعرّض لها طبقةُ العمّال، هى نتيجةٌ لتراكم رأس المال لدى الرأسماليين واحتكارهم لوسائل الإنتاج. إنّ أصحابَ النظرية الشيوعية فقد استخدموها لتبرير أنَّ السلطةَ السياسية الرأسمالية والاقتصادية كانت تستغِلّ قوةَ العمل للطبقات الفقيرة والمحرومة وذلک نتيجةً لسوء استعمال القوة. (مولود

زايد الطبيب، ٢٠٠٧م: ٥٤)

الصعلكة والعيارة لغة واصطلاحا

جاء فى لسان العرب تحت مادة (ص ع ل ک): الصُّعْلُوک: الفقيرُ الذى لا مالَ له، زادَ الأزهريُّ: ولا اعتمادَ. (ابن منظور، ١٩٦٨م: مادة صعلک)

ورجل عَيّار: كثير المجيء والذهاب فى الأَرض، وربما سُمِّيَ الأَسَد بذلک لتردده ومجيئه وذهابه فى طلب الصيد: قال أَوس بن حجر:

لَيْثٌ عليه من البَرْدِيّ هِبْرِية كالمَزبَرانيّ، عَيَّارٌ بأَوْصالِ

أَى يذهب بها ويجىء؛ قال: وحكي الفرّاء رجل عَيَّار إذا كان كثير التَّطْواف والحركة ذكِيّاً؛ وفرس عَيَّار وعيّال؛ الفرس النشيط. قال: والعربُ تمدح بالعَيَّار وتَذُمّ به، يقال: غلام عَيّار نَشِيط فى المعاصى، وغلام عَيّار نشيط فى طاعة الله تعالى. (ابن منظور، ١٩٦٨م: مادة صعلک)

ذُكِرَت فى بعض المصادر، مثل تاريخ سيستان، لفظةُ سالوكان مع عياران ويعادل الصعاليک فى العصر الجاهليّ وكان فى الاتصال به. (حاكمى، ١٣٤٦ش: ٦٢٧)

على كل حال، بعد تبيين نظريات هؤلاء يمكن القولُ إنّ مشاعرَ هؤلاء العيارين والصعاليک والشطار اتحدّت بوطأة الظلم والفقر والهوة العميقة الموجودة بين الطبقة الحاكمة والمحكومة، وفرض الضرائب والاضطهاد الواقع على كاهلهم فبادروا إلى الأخذ من الغنيّ، والبخيل، ونصرة الفقير البائس، فحملت نفوسهم أخلاق نبيلة وقيم سلوكية رفيعة، ولو أرغموا بأن يقطنوا فى الصحارى والبرارى والغابات كما فعل الصعاليک الذين قاموا بفعلتهم هذه مثل "طرزان" الذى كان يعيش مع حيوانات الغابة. وهذه هى الميزةُ المشتركة العامة بين هؤلاء فى المجتمعات المختلفة. ونرى هذه الميزةَ عند "روبن هود" الشخصية الإنجليزية التى برزت فى الفلكلور الإنجليزىّ وهى تمثّل فارسا شجاعا، مهذّبا خارجا عن القانون. إنه كان بطلا من الشعب هدفه محاربةُ الفساد؛ كما كان متهوّرا يقود مجموعتَه من المتمرّدين فى غابات شروود. وكان يتمتّع ببراعة مُذهِلة فى رشق السهام. تُمثِّل أسطورةُ روبن هود فى العصر الحديث شخصا قام علي سلب وسَرِقة

الأغنيـاء لأجل إطعام الفقراء، بالإضافه لذلک حـاربَ روبن هود الظلمَ والطغيانَ. أو نرى هذه الميزاتِ عند السـامورائيين فى اليابان والشـوالية فى أوربا. فبناءً على وجود الاشتراكات الكثيرة بين المجتمعات العالمية، تُعَدُّ هذه الظاهرةُ جديرةً للدراسة. (هانرى كربن، ١٣٨٥ش: ١٤٢)

كمـا نرى هذه الظاهرةَ فى إيران قبل الإسـلام، حيث ذكـر فى "زندونديداد": كانت هناک جماعةٌ معارضةٌ للحكومة، تستحسـن سـرقةَ الأموال من الأغنياء وإعطائها إلى الفقراء وتعتبرها "كرفه" أى العمل الحسن والمقبول. (منصور شكى، ١٣٧٢ش: ٢٩)

أما العيارون فى العصر الإسلامىّ الوسيط فكانوا كسابقيهم فى العصر الجاهلىّ – وهم الذين سُمُّوا بالصعاليک– أولئک الذين تمحورت سيرتُهم حول قضية العدالة الاجتماعية والسياسـية فضلا عـن التحرّر الاجتماعى. وجديـرٌ بالعناية أنّ هاتـين الظاهرتين – العيارة والصعلكة– تحملان فى طيّاتِهما فكرةً إنسـانيةً ردّدتهـا العامةُ فى كلا العصرين الجاهلىّ والإسلامىّ، فى الحكايات والقِصص. ولاشک أنّ هاتين الظاهرتين التاريخيتين والشـعبيتين تعكسـانِ طموحا أو حلما جماعيـا لتحقيق العدالة بشـكليها الاجتماعىّ والسياسىّ، وظلّا حَيّينِ فى الوجدان الشعبىّ فى هذه العصور. أولئک هم الذين أصحابُ أنفةٍ واعتدادٍ بالنفس فيتحملون الأذى الجسدىَّ، والجوعَ بدلا عن أن يستجدِى أحدُهم غيرَه والمُدهِشُ أنهم لايسـتأثِرون بما يأخذون بل كانـوا يُؤثِرون مَن كان بهم خصاصةٌ من أصحاب الحاجات المُعوِذين على أنفسـهم وهم يُعبِّرون عن المرارة التى تتفاعل فى أنفسـهم بسبب التفاوت الاجتماعىّ وضيق ذات اليد ولذلک فإن طائفةً منهم قد بَرَّرت وسَوّغَت لنفسها اللجوءَ إلى السرقة، واعتبرت ذلک موضعَ فخرٍ واعتزازٍ ومؤشرةً على البطولة والشـجاعة والحماسـة، وبعد ذلک أعلنوا تمرُّدَهم وثورتَهم على بعض طبقات المجتمع، وعلى الذين اسـتأثروا لأنفسـهم بالسـلطة أو المال أو بهما معا، كما استهدف هؤلاء أن ينالوا بأسلوب غير شرعىّ ما يتصورون ويعتقدون أنه حقٌ شرعىٌّ لهم.

وهـذه الظاهرةُ، أى ظاهرة التمرّد واجهت كلَّ عنف وقسـوة من السـلطة القائمة، باعتبارها خروجا على القانون والسـلطة الشـرعية. ومن الطبيعىّ أن تشـوّه صورتُهم من قبل مؤرخى السـلطة الرسميين، إما جهـلا بأوضاع هذه الطبقة الاجتماعية المتردية

أو مبالاةً للسلطة القائمة. غير أن العيارين والشطار بالمقابل حَظوا بإعجاب العامة فى عصرهم، فتعاطفت معهم وأشادت بأفعالهم. وقد انتهى الارتقاءُ بالشطار والعيارين فى التراث الشعبيّ إلى مرتبة البطولة شبه ملحمية، حتى ردّدتِ الألسنةُ أنّ اللصَّ أحسنُ حالا من الحاكم المرتشى أو القاضى الذى يأكل أموالَ اليتامى. (العقيلى، ١٩٩٤م: ٩٦)

كانتِ الصعلكةُ والعيارة عندهم نزعةٌ إنسانيةٌ نبيلةٌ وضريبةٌ يدفعها القوى للضعيف، والغنىّ للفقير وفكرةٌ اشتراكية تشترك الفقراءُ فى مال الأغنياء وتجعل لهم فيه نصيباً؛ بل حقا يغتصبونه إن لم يؤد لهم، وتهدف إلى تحقيق لونٍ من ألوان العدالة الاجتماعية والتوازن الاقتصاديّ بين طبقتى المجتمع المتباعدتين: طبقة الأغنياء، وطبقة الفقراء. فالغزو والإغارة للسلب والنهب لم يَعُد عندهم وسيلة وغاية وإنما أصبح وسيلةً غايتُها تحقيقُ نزعتهم الإنسانية وفكرتهم الاشتراكية كما هو الحال عند الصعاليک الجاهليّين. (هداره، ١٣٨٥ش: ٣٩)

من هنا بدأ الصراعُ بين أفراد القبيلة الفقراء الذين كانوا يعانون من الفقر، والحِرمان، والجوع، والظلم والتبعية للقبيلة دون أن تكون لهم كلمةٌ تُسَمعُ أو شأنٌ، وذنبُهم الوحيدُ أنهم وُجِدوا فى هذه الحياة فقراءَ. وقد وُجِدت فئةٌ من المضطهدين الذين يحملون عقولا نيِّرةً تُؤمِن بالعدالة وتُنكِر الظلمَ والاضطهادَ و... إنّ هؤلاء جرَّدوا سيوفَهم دفاعاً عن حقهم وحقوق إخوانهم، فتعرّضوا للنفى وتجريدهم من حقوق القبيلة وبالتالى هدرَ دمائَهم أنهم نموذجٌ شريفٌ للثورة على الظلم والعمل على تغيير الواقع الاجتماعىّ.

وقد وَجد الصعاليکُ فى الأغنياء البخلاء، هدفا صالحا لهم فهؤلاء أصحابُ مالٍ، وهم أصحابُ جوعٍ ولابدَّ للجياع من أن يعيشوا، فلم يجدوا فى مباغتة الأغنياء أىَّ حرجٍ يمنعهم من السطو على أموالهم؛ لأنها زائدةٌ عليهم، وهم فى حاجة إليها وبذلک يضمنون لأنفسهم ولإخوانهم الجياع الصعاليک أسبابَ الحياة فالحاجة عندهم تبرِّرُ الواسطةَ. والفقراءُ الذين لايملكون شيئاً فتحوَّل كثير منهم إلى قُطّاع للطرق يسلبون وينهبون ويقتلون على نحو ما هو معروف. ولهذا السبب يُسَمّون بذؤبان العرب. (قراگوزلو، ١٣٧٣ش: ٣٤)

فإن المتأملّ فى أدب الصعاليک يرى أنهم كانوا فى ثورتهم على مجتمعهم، يهدفون إلى

الإصلاح ويُنشِدون المساواةَ والعدالةَ الاجتماعيةَ. وهذه الأهداف التى عبّروا عنها فى شعرهم تُعتبَر من أهمّ عناصر اشتراكيتهم أو مظاهر الاشتراكية فى أدبهم. فالصعاليک لم يهاجموا القوافلَ أو يغيروا على القبائل لرغبتهم فى الإغارة ذاتها، ولا ليُفيدوا غنى وثروةً وجاها يرفع من مقامهم فى المجتمع الأرستقراطىّ الذى يعيشون فيه؛ بل نراهم على النقيض من ذلک تماما، يأخذون من الأغنياء ليُعطوا الفقراءَ على الرغم من كثرة مغانمهم وأسلابهم من إغاراتهم، وذلک بسبب إباحتهم ما فى أيديهم لأمثالهم من الفقراء. وهنا يبرز معنى أصيلٌ فى مظاهر اشتراكيتهم.

وقد كان اللونُ الأسودُ عنصراً موجودا فى بعضهم. ونادراً ما يكون الصعلوک حُرّا، فهم عادةً من العبيد أو من الموالى وقد كان اللونُ الأسودُ عنصراً موجوداً فى بعضهم تصعلكوا لازدراء قومهم لهم ولانتقاص أهلهم لشأنهم أو لفقرهم، وظلم المجتمع لهم، وعدّهم طبقةً مهلوكةً، هم والحيوان المملوک سَواء بسواء. وهذا ما جعل بعضَ الرقيق يهرب من سيده فراراً من ظلمه لينضمّ إلى الصعاليک، أو ليكون عصابةً تلجأ إلى الجبال والكهوف، تهاجم المارةَ والأحياءَ، لتحصل على ما تعيش به. (جواد على، ٢٠٠١ م: ١٧٩)

هؤلاء السودُ الزنجيون جماعةٌ من المحرومين والمتمتِّعين بالحظّ السيئ قد وقعوا تحت الظلم بواسطة جماعة البيض إلى حد ما لم يكن عندهم مقدرةٌ للتخلص عن عواقب سوء ناجم من لونهم. جماعةُ السود من أية فرقة تشترک فى الرقية والعبودية، كأنها خُلِقت للرقية والعبودية. كما انعكست هذه الناحيةُ فى شعرنا الكلاسيكىّ بصورة سلبية بحيث ذكرت خصائصهم وميزاتهم من ناحية السواد والرقية ولايستأهلون أىَّ شىء مع الأسف. يرى الحافظ الشيرازىّ أنَّ الزنجىَّ ليس جديرا بحفظ الأمانة التى هى من أسرار قلبه: (حافظ، ١٣٨١ش: غزل ٧٦)

خزينه دل حافظ به زلف و خال مده كه كارهايى چنين، حد هر سياهى نيست

من وجهة نظر معظم هؤلاء الشعراء إنّ السوادَ لونٌ كريهٌ لن يمحوَ ووصمةَ عار على جبين هؤلاء، بحيث لايمكن تغييرُه وهذا يدلّ على عدم مقدرة البشر لتغيير القدر الإلهىّ. يقول سعدى فى بوستان: (سعدى، ١٣٧١ش: ٥٦٨)

به كوشش نروید گل از شاخ بید نه زنگى به گرمابه گردد سپید

كما لايمكن إنباتُ الزهرة من الصفصاف، فإنّ الزنجيَّ لايبيضّ ولايمكن ابيضاضُ لونِ الزنجيّ، فهذا أمرٌ مستحيلٌ.

جاء فی کتاب مثنوی معنوی فی عدم تغییر الأصالة لکل شـیء: (مولوی، ١٣٦٣ش: ١٣٢)

نقش ماهی را چه دریا و چه خاک رنگ هندو را چه صابون و چه زاک

إنّ الشاعرَ یستدلّ بعدم تغییر لون السمک فی البحر والبَرّ علی عدم تغییر هذا اللون السواد.

إن انتسـابَ السرقة، وقطعَ الطریق، والسـلب، والنهب، والغارة الی الهنود السوداء من المضامین المشـهورة فی الأدب الفارسیّ. یعتقد ناصرخسرو أنّ الدنیا قاطعةُ الطریق وسـارقةٌ، وعلی الإنسان أن یحتفظ بنفسـه أمام هذا اللصّ: (ناصر خسرو، ١٣٤٩ش: ١٤٩)

جهان هندوسـت تا رختت نگیرد مگیرش سسـت تا سختت نگیرد

وقال حافظ: (حافظ، ١٣٨١ش: غزل٢١٣)

زلـف هنـدوی تـو گفتـم کـه دگـر ره نزنـد
سـالها رفت و بدان سیرت و سان است که بود

یقول الشـاعر إننی ظننتُ فی نفسـی أنّ طرّتک السوداءَ لاتسرق ولاتقطع الطریق، ولکننی أخطأت فی هذا الرأی؛ لأنها تعوّدت علی هذه الشیمة.

ولکن رغم اتصافهم بهذه الخصلة الشـنیعة یعتقد النظامـی أنّ فیهم المروءة والفتوة وخصلة العیارة ولایمکن قطع أیدیهم حیث یقول: (نظامی، ١٣٤٣ش: ٤١)

نبرد دزد هندو را کسـی دسـت که با دزدی جوانمردیش هم هست

وأخـیرا نذکر رأیَ ابن خلدون حیث یناقش سـوادَ لونهم قائلا: بعض علماء علم الأنساب یرون أن جماعةَ السود تکون من أولاد حام بن نوح، دعا علیهم أبوهم فلذلک أصبحوا سودا، ولهذا اختصّ بهم الله الرقیةَ والعبودیةَ. (مقدمه: ١٥٣)

وأحیانا تبرز ظاهرةُ الصعلکة من بین الفقراء الذین عجزوا عن مواجهة واقعهم وعدم تغییر النظام السـائد آنذاک. وبهذا اتخذوا من الهرب وکسـر طوق الانتماء الذی یحمی

وجودَهم مبدأ، فقطعوا كلَّ أواصر القربى بينهم وبين ذويهم واعتقدوا بأنهم قادرون على بنـاء نظام اجتماعىّ واقتصادىّ جديد. وكما يرى الدكتور حنا الفاخورىّ (الفاخورى، ٢٠٠٥م: ١٦٤) راحـوا يمـلأون الفلواتِ والجبالَ والأوديةَ رعبـاً وهولا ويرفعون عَلَمَ الصعلكة عالياً لايُبالون فى سـبيل غايتهم أكانت وسـائلُهم مشـروعةً أم غيرَ مشروعةٍ فالحقُّ للقوّة والغاية تبرّر الوسيلةَ وكان صلاحُ صعلكتهم قوةَ الجسم وقوةَ النفس والقوة من أميز ميزات المجتمع الجاهلىّ عامة والصعلكىّ خاصة.

وقد عُرِفوا بـ"الرجليين" (جواد عليف ٢٠٠١م: ١٧٠) لاستعمالهم أرجلهم فى الإقدام والهروب؛ لأنهم فقراءُ لايملكون غيرَ أرجلهم تحملهم إلى المواضع التى يريدون سـرقتها إذ لاخيـل لهم يركبونها لعجز أكثرهم عن شـرائها فلا يكون أمامهم غيرُ الاعتماد على الرجل.

والمُلفِـتُ للنظر أنّ بعضَ المصادر ذكرت أنّ مِـن الصعاليک والعيارين بعضَهم طاب لهم أن يطلقوا على أنفسـهم "الفتيانَ" واستسـاغوا هذا اللفـظَ؛ لأنّ اتصافهم بالفتوة تدلّ على الشـهامة، والمروءة، والفروسية، والشجاعة والنجدة فضلا عن إغاثة المساكين والفقـراء وغيرها من مقوّمات الفتوة الشـعبية. يَرى الدكتـورُ محجوب فى مقدمته على كتاب "فتوت نامه سلطانى" بعد أن اختلطت العيارةُ مع التصوف، حصلت على عنوان الفتوة فجعل يتغلغل فى عامة الناس بين أصحاب الحرف والمهن. (كاشفى، ١٣٥٠ش: ٧)

كما فلابدّ بأن نذكر أنّ الصعاليکَ أو العيارين انقسـموا حسـب دوافعهم النفسـية والاجتماعية إلى فريقين: فريق متمرّد حاقد تنطوِى نفسه على نزعة أنانية شريرة. وفريق تنطوى نفسه على نزعة خيرة غايتها حماية المستضعفين وتحقيق العدالة الاجتماعية.

ولكن بعد أن أشـرقتِ الجزيرةُ العربيّةُ بنور الإسـلام تغيّرت أوضاعُ الحياة العربيّة الاجتماعيـة والاقتصاديـة ولم يبقَ للصعلكـة مكانٌ فيها وبخاصـة فى العهدين النبوىّ والراشـدىّ، بسبب ما نشره الإسلامُ من مبادىء سامية قائمة على العدالة ومبدأ تكافؤ الفـرص، ومسـؤولية الأمة عن أىّ حيف أو جـور اجتماعىّ يقع علـى كاهل الفقراء والمُعوزين. فإننا نشـهد صورةً أخرى لتلک الحياة التى تغيّرت ظروفها بسبب ما أحاط برِقاب الصعاليک من ضوابط الدين الجديد. فلم يعودوا قادرين على المُضىِّ فى حياتهم

كما كانوا فى الجاهليّة؛ لأنّ مقياسَ الأمور فى ظِلّ الحياة الإسلاميّة كان يقوم على الحقّ والعدل.

وحتى فى العصر الأمويّ والجاهليّة الثانية، أفرط هؤلاء العيارون فى أعمالهم حيث أعلن والى العراق خالد بن عبدالله قسرى بإغلاق مجالسهم واجتماعهم. (صديقى و معين، ١٣٤٦ش: ١٣٩)

ويتبيّن أنّ بوادرَ هذه الظاهرة كانت فى مطلع العصر العباسىّ وفى شرق دار الخلافة. وأنّ هذه الظاهرةَ لم تكن تشكِّل خطرا كبيرا يهدِّد سلطةَ الدولة. وذلک لأنّ الدولةَ كانت لاتزال قوية متماسكة، وفى ذروة مجدها السياسىّ والحضارىّ، ولاتزال قبضتُها قويةً حتى على الأطراف. ولم تكن غايةُ الصعاليک والعيارين حتى عهد الرشيد سِوى أن يتعرضوا لقافلة أو سفينة، فيختلسوا على حين غِرّةٍ الشىءَ الطفيف الذى يَسُدّ فقرَهم. ومن أهمّ العوامل التى أثّرت فى إيجاد هذه الظاهرة وتقويتها فهى: إجراء مرسوم غلاء أقوات الفاحش للمعيشة حيث أثّر فى تفاقم البؤس، ومن جرّاء ذلک نزوح السكان إلى بلاد أخرى، والجوع، والقحط وموت الكثيرين. فرض ضرائب كثيرة على المنسوجات الحريرية والقطنية وأشياء أخرى بحيث أدّى ذلک إلى اجتماعات للاحتجاج والتمرّد العسكرىّ و...إلخ (اقتباس من على مقلد، ١٣٦٤ش: ٤٧-٦٧)

وفى الختام نذكر بعض ميزات وخصائص العيارين والفتيان مستعينين ببعض النصوص والأشعار الموجودة فى الأدب الفارسّى. يقول عنصرُ المعالى كيكاووس:(عنصرالمعالى، ١٣٢٩ش: ١٨٣) اِعلم أن هناک للفتيان والعيارين عددا من الفنون الخاصة وهى الفتوة والشجاعة، والصبر، وشدة البأس، وصدق الوعد، ليس يرضون بظلم شخص ولايُظلمون من جانب الآخرين، يحترمون الأسراء وينصرون الفقراء ويحمون البؤساء أمام ظلم الحكام، صادقون فى القول والعمل. إذا يجلسون على مائدة لا يظلمون على أهلها ولايفعلون الأعمال الشنيعة، وينظرون إلى البلاء نظرة حسنة و... إلخ. يقول شيخ شهاب الدين سهروردى: (سهروردى، ١٣٧٠ ش: ١١٥) الفتوة هى عفةٌ فى الحياة، ومجدٌ فى طاعة الحق، كسُب المعاش بالمشقة، يعطى شريحة إلى عياله وشريحة إلى البؤساء والمحرومين، يؤثر الآخرين على نفسه.

قال الدکتور برویز خانلری: (خانلری، ۱۳٤۸ش: ٦) الفتوةُ من المنظمات الاجتماعیة المهمــة فی إیران مدی القرون المتمادیة ولیس عندنا خبرٌ واثقٌ من نشــأته، ولکن یمکن انتســابه إلی تأریخ ماقبل الإســلام. تعــادل لفظةُ الفتوة (العیــاریّ) فی معظم المصادر، المــروءةَ، ولکن عندما نأخذ هذا اللفظَ من العربیّ لیــس معناه قریبا بمعنی المروءة. منذ القدیم ذُکرت لفظةُ ''عیار'' کاســم خاص أو صفة للمحبوبة فی الأدب الفارســیّ یقول رودکی:

داد پیغــام بــه ســراندر عیار مرا که مکن یاد به شعر اندر بسیار مرا

أرسلت الحبیبة إلیّ رسالة قالت فیها: لاتفضحنی ولاتذکرنی کثیرا فی أشعارک.

کما یعادل السارق، والطرار وقاطع الطریق، مثل هذا البیت من ویس ورامین:

جهان آسوده گشت از دزد و طرار زکــرد و لــور و از رهگیر و عیار

یری الشاعر أنّ العالم قد استراحَ من السارق، والطرار، وقاطع الطریق والعیار.

وقد ورد المعنی نفسه فی کتاب أنیس الطالبیین من النسخة الموجودة فی مکتبة دهخدا:

«پیش از ما عیاران آمدند وآنچه در این خانه بوده است، برده‌اند.»

أی قبلنا جاء العیارون وسرقوا ونهبوا کل ماکان موجودا فی هذه الدار.

نواجه فی الکتب التاریخیة والقصص الحماسیة والروایة القصصیة فی الأدب الغربیّ، لفظةَ ''شــوالیة'' ولهــذه الکلمة صدی عظیمٌ لخصائص الفتیــان والأبطال فی الاجتماع الأوروبیّ فی مدی التاریخ. وقد کان التقیدُ بهذه الســلوک واجبا لشــوالیة فی الأوروبا الشرقیة أو الغربیة فی ساحة الحرب أو غیرها.

فی طریقة الفتــوة، لایُعتَبرُ اللونُ والعصبیة والبیئة والعنصریــة واللغة أمرا مهما، بل إنّ الأهداف العالیة والأصول الأساســیة هی مســاعدةُ الخلق، والعفة، وحفظ الصداقة والمحبة. لهذا الســبب نری العیارین أنهم یحاولون فی حیاتهم لکســب حسن السمعة بین الناس ویتحملون مشــاکلَ کثیرةً للاحتفاظ بهذه الصفة؛ فمن هؤلاء العیارین أبو مسلم الخراسانی، وسنباد، وحمزه بن آذرک سیستانی ویعقوب لیث صفار.

هناک قصةٌ سُمِّیت بســمک عیار وهی روایةٌ عن حیاة سمک عیار والســائرین مثل: شــغال پیروز، وروزافزون، وهرمزکیل، وشــاهک، وســرخرود، وآتشک، وسرخ کافر

ومئات من العيارين الفتيان.

مــن بعض الخصائص المذكورة للعيار فی هذه القصة: (غلام حيدر، ٢٠٠٦م: ٤٣) إنه رجلٌ رشــيقٌ، هزيلٌ، ليس بينه والآخرين فرقا ظاهريا ولكن فيه الخصائص الإنسانية مثل الشــجاعة، والمروءة، وحســن المعاشــرة، وإكرام الضيف، والتواضع بدرجة عالية، بحيث يحاول فی رفع مشاكل الناس بقدرة العقل والمنطق.

فی رأی سمــک عيار: الرجل الفتی ليعلــم الفتوة، والمروءة وآداب الغزو، وأن يبدأ فی الكلام بالبداهة، ويكون قليل الكلام، وفی ساحة الحرب حاذقا فطنا. وأن تكون أعمالُه لكسب السمعة العالية ولا الخبز والمال. فإنّ مطالعةَ هذا الكتاب تساعدنا للحصول على فهم أخلاق العيارين والفتيان وطبقاتهم الاجتماعية وكل شیء يرتبط بهم.

بعض خصائص وميزات هؤلاء من خلال النصوص والأشعار الموجودة:

يقول خاقانی:

برفلــک شــو زتيغ صبــح نترس　　كــه نترســد زتيــغ و ســر عيــار

يعتقد الشــاعر أنّ مِن صفات الفتی العيار أنه لايُبالی المشــاكلَ ولو كان ذلک ينتهی إلی موته.

يذكر عبدالرحمان جامــی فی ديوانه هفت اورنگ (ص٥٣٠) صفةَ الفتيان فی ثلاثين بيتا منها: إنه يعتقد بأنّ علی الإنســان أن يبتعد عن الدنائة وألا يفكّر فی نفســه فقط؛ بل عليه أن يكون دينا قويا ويتفكر فی البؤساء والفقراء ورفع حاجاتهم فی الحياة:

ای كــه از طبــع فرومايه خويش　　مــی‌زنی گام پــی وايــه خويش

خاطــر از وايــه خــود خالی كن　　زين هنــر پايــه خود عــالی كن

چنــد روزی زقوی دينــان باش　　در پــی حاجت مســكينان باش

يری عطار النيسابوری أن الفتوة، نفس الصبر والحلم والتضرع:

فتــوت ای برادر بردباری اســت　　نه گرمی وســتيزه بلكه زاريست

ويذكر رودكی السمرقندی فی "اندرز نامه" هذه الصفات قائلا:

گر برسر نفس خود اميری مردی　　بر كور وكر ار نكته نگيری مردی

مــردی نبــود فتاده را پــای زدن　　گر دســت فتاده را بگيری مردی

يرى الشاعر أنّ الإنسانَ إذا استولى على نفسه وهواها ولايعيبُ الآخرين ويساعد الإنسانَ البائس، هو الفتى.

النتيجة

وفى الختام كنتيجة للبحث نذكر القواسَم المشتركةَ بين الصعلوک الجاهلىّ والعيار، فهى فخرهم بسرعة عدوهم وشجاعتهم، وإيثارهم أمام الآخرين، فالسلاح صديقهم الخاص. ويهتمّون بالممارسات الرياضية والجسدية والرماية، ومن خصائصهم الذاتية كتمانُ السر، والصبرُ والإقدامُ والشجاعة، ومساعدة الفقراء والمساكين، والأمانة وإيفاء العهود والاعتقاد بتقسيم المال بين الفقراء رغم احتياجهم إليها، الإيمان بالعدالة ومكافحة الظلم والاضطهاد، إغارة أموال الأغنياء والمترفين؛ لأنهم يرون أن الأغنياءَ نالوا هذه الثروة بامتصاص دم المظلومين، ففرض عليهم أخذ أموالهم وإيصالهم إلى الفقراء.

ويعود سببُ ظهور هؤلاء فى كل مجتمع إلى أنّ الحكام والولاة لم يهتمّوا بإقامة الأمن والراحة بين الناس بحيث رأى هولاء أن ينهضوا بإقامة الحقوق المالية أو الاجتماعية الضائعة بوحدهم.

قد بلغ هؤلاء فى الشطارة واللصوصية غايةَ المهارة يسرق الوهمَ من الخاطر والراحة من الطيب العاطر والنومَ من أجفان الوسنان واللماظةَ من أسنان الجيعان ويأتى علي كوامن الغيوب فضلاً عن خزائن الجيوب ويلف الرخيص، والغالى، والوضيع والعالى، وقد أعجز المقدم والوالى ففى بعض الأوقات قصد جهة من الجهات بينما هو فى المناهضة والمناهزة غشيه الوالى يطلب المال، ويكتسب المجد. ويتبين من هذا الكلام بأنه لم يتخذ الفقر ضجيعا، ولا الدعة حليفاً، بل رمى بنفسه نحو المرامى الملتفّة والمهالک للمعيشة. وأخيرا:

وسائلةٍ بالغيب عنى وسائلٍ ومن يسأل الصعلوک أين مذاهبه

أى يجب ألا يُسأل الصعاليک عن مذاهبهم وطرقهم، لأنها لا تعلم، إذ لم يكن يستقر بهم موضعٌ خاص، فإنهم موجودون فى كل مكان وزمان.

المصادر والمراجع

ابـن منظور، ابوالفضل جمـال الدين محمد بن مكرم. ۱۹٦۸م. لسـان العرب. بيروت: دار بيروت للطباعة والنشر.

إحسان، محمد الحسن. ۱۹۹۹م. موسوعة علم الاجتماع. بيروت: الدار العربيّة للموسوعات.

حافظ شيرازى، شمس الدين محمد. ۱۳۸۱ش. ديوان. به اهتمام محمد قزوينى وقاسم غنى. طهران: انتشارات زوار.

خانلرى، پرويز. ۱۳٤۸ش. «آيين عيارى». مجله سخن. العددان ٥ و٦.

دهخدا، على اكبر. ۱۳٦۰ش. لغت نامه. تحت اشراف محمد معين، سيد جعفر شهيدى. طهران: لانا.

زايد الطبيب، مولود. ۲۰۰۷ م. علم الاجتماع السياسى. ليبيا: منشورات جامعة السابع من ابريل الزاوية.

زيدان، جرجى. ۱۳۸٦ش. تاريخ تمدن اسلام. مترجم على جواهر كلام. طهران: امير كبير.

سعدى شيرازى. ۱۳٦۲ش. كليات. به اهتمام محمد على فروغى. طهران: امير كبير.

سهروردى، شهاب الدين. ۱۳۷۰ش. فتوت نامه. تصحيح مرتضى صراف. طهران:د.نا.

شكى، منصور. ۱۳۷۲ش. «درست دينان». مجلة المعارف. دورة العاشرة. العدد ۱.

صديقى، غلامحسين، معين محمد. ۱۳٤٦ش. جرعه فشانى بر خاك. يادگار. سال ٥۷/۸.

عبدالرحيم، عبدالمجيد. ۱۹٦۹م. تطور الفكر الاجتماعى، القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية.

العقيلى، محمد ارشيد. ۱۹۹٤م. «العيارون والشطار ودورهم فى الحرب بين الأمين والمأمون». مجلة دراسات تاريخية. العددان ٤۹ و٥۰.

على، جواد. ۲۰۰۱ م. المفصل فى تاريخ العرب قبل الاسلام. مجلد ۱۸ دار الساقى.

عنصـر المعـالى، كيكاوس بن قابوس بـن وشمگير. ۱۳٥۲ش. قابوس نامه. بـه اهتمام وتصحيح غلامحسين يوسفى. طهران: بنگاه ترجمه و نشر كتاب.

الفاخورى، حنا. ۲۰۰٥ م. الجامع فى تاريخ الأدب العربىّ، الأدب القديم. بيروت: دار الجيل.

فرشـبافيان، احمد. ۱۳۸۹ش. «سيماى سـياهان در ادب». مجلة ادبستان. العدد ٥٥. (موقع نور. العدد ۳۸)

كاشـفى، حسـين واعظ. ۱۳٥۰ش. فتوت نامه سـلطانى. به كوشـش دكتر محمد جعفر محجوب. لامك: بنياد فرهنگ ايران.

كربن، هانرى. ۱۳۸٥ش. آيين جوانمردى. ترجمة احسان نراقى. طهران: نشر سخن.

مقلد، على. ۱۳٦٤ش. الفئات الاجتماعية فى بغداد أيام الخلافة العباسـية. مجلة العرفان. العددان ۷۳۱ و۷۳۲.

مولوى، جلال الدين محمد البلخى. ۱۳٦۳ش. مثنوى معنوى. تصحيح رينولد نيكلسون، به اهتمام

دکتر نصر الله پور جوادی. طهران: امیر کبیر.

هداره، محمد مصطفی. ۱۳۸۵ش. اشـتراکیة الشـعراء الصعالیک. السنة الثانیة. الجزء۱٤. لامک: لانا.

نظامی گنجوی. ۱۳٤۳هـ. سبعه نظامی (هفت پیکر)، با تصحیح وحواشی وحید دستگردی. ج۷. طهران: علمی.

پژوهشگاه علوم انسانی و مطالعات فرهنگی
پرتال جامع علوم انسانی